

ديوان عبد المطلب

بقلم

مهدي علام

استاذ التربية بدار العلوم

مقدمة :

كان عبد المطلب رجلاً بدوياً بفطرته ، حضرياً ببيئته . وقد اعتوره تلك البداوة وهذه الحضارة . وتنازعتاه زمناً ، كل منهما تريد أن تستأثر به لنفسها ، وتخضعه لسلطانها ؛ ولكن عبد المطلب في قوته وصلابته قد أخضعهما جميعاً لحياته ، فلام بينهما ملائمة ، وأخرج منهما مزيجاً ممتازاً به على سائر لداته : فكان البدوي الحضري في مأكله ومشربه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومركبه ؛ ثم ظهر أثر ذلك كله في شعره . فكان بذلك مدرسة مستقلة في الأدب العربي - مستقلة عن الشعر العصري لأن صدى البادية يتردد في أنحاء شعره في الخيال والمعنى واللفظ ، ومستقلة عن الشعر العريق لأن صور المدينة في شيخوخة القرن التاسع عشر والثالث الأول من القرن العشرين قد انعكست على مرآة شعره ، وإن سترها في بعض الأحيان أسلوبه البدوي .

لقد أكل عبد المطلب متربعا على سباط البادية ، كما جلس إلى مائدة المدينة ، فجعل من ذلك كله صورة بين هذه وتلك هي التي وصفها إذ يقول (ص ٩٢)

ولو ترى ، إذ ترى ، طعام العشاء تجري به الجوارى

من كل رومية كعاب شفاقة الثوب والإزار
 يمشين حول الخوان رهوا مشى المعنى من الإيسار
 قتلك في كفها حنيد على إناء من النضار
 وتلك من خلفها بصحن عليه حوت من البهار
 وتلك من خلفهن عجلي تحمل شيئا من الثمار
 وكم وكم ثم من صنوف في العد جلت عن انحصار !
 أليست هذه المائدة التي يصفها عبد المطلب مائدة بدوية تخطو مائدة
 نحو المدنية ؟ لم ينس عبد المطلب « الحنيد » ولكنه وضعه على إناء من
 النضار ، وذكر الفاكة - وهي للبدوي ترف يدل عليه اشتقاق لفظها -
 ولكنه لم يسرف بل كان قانعا بشيء من الثمار . ثم هو يصف لنا جواري
 المائدة حتى ليكاد ينقلنا إلى فندق من فنادق لندن أو باريس .
 ولقد كان عبد المطلب يتزيا بالثياب العربية ، وكان بها مشغوبا نفورا ،
 وعليها محافظا حريصا ، ولكنه لم يغلق عينيه عن مستحدثات الحضارة في
 ذلك الزم ، فقد ارتدى « الدثار » كما ارتدى « الجبة » ، على حين أن بعض
 أشياخنا من لداته وزملائه ما برحوا يحافظون على جباههم وعباءاتهم حتى
 اليوم ، فكان بذلك وفيما لمذهبه في الجمع بين القديم والجديد ، وكلنا يذكر
 دثاره العريق الذي جمع فيه بين التفصيل الحديث ، والصوف البلدي
 الذهبي اللون ، الذي يذكرنا بقول الشاعر البدوي :

حيكت على نيرين إذ تحاك تحبب الشواك ولا تشاك
 وكأما عبر عبد المطلب عن حاله هذه في الخرص على القديم مع
 اقتباس الجديد بقوله ينعي على أدعياء الأدب إذ يدعون إلى أطراح القديم
 (ص ٢١٩) :

مازوا الجديد من القديم وما دروا أن الجديد من القديم سليل

ما في القديم معابة إن لم يكن فيه عن الشنن السوى عدول
 وذر الجديد إذا رأيت سبيله عوجا عن الحق المئين تميل
 وبقوله يتحدث عن اللغة الغزية (ص ٢٢١)

من لم يحط بقديمها لم يعتقد علما بمجد الشرق ، وهو أثيل
 وخذى المعاني في جمال جديدها ماشئت لاجرج ولا تخذيل
 ولقد رأينا عبد المطلب في مسكنه يخضع كذلك لمذهبه في الجمع بين
 القديم والجديد ، فقد سكن قلب القاهرة حقبة طويلة من الزمن ، ثم
 انتقل إلى مصر الجديدة ، في أعوامه الأخيرة . ولعل من أول الدلائل
 على عدم اندفاعه وراء الجديد ، وإبقائه على القديم أنه كان ، وهو يقيم في
 تلك الضاحية الجميلة ، يحمل معه من القاهرة في سيارته كل يوم ما يحتاج إليه
 من الماء ، لأن ماء مصر الجديدة ، لم يلق لديه قبولا : فكم مرة ركبت
 معه وأمامنا صفائح الماء وزجاجاته استبدلها بالمزاود والقرب ، كما استبدل
 في حملها بالابل السيارة ! تلك لعمرى صورة عجيبة حقا ، ولذنها صادقة
 صدقا ، في تصوير عبد المطلب ونزعاته الشعرية .

ولم تكن تلك السيارة أولى مطاياها ، فقد كان عبد المطلب في مركبه
 وفيما نظريته ، فقد بدأ حياته يمتطي حماراً ، حماراً سعيداً .

لو أراد الإله في بهم رسلا كان في أمة الخير نيا
 فقد كان يركبه إلى دار العلوم ، وهناك في شارع المنيرة يربط الحمار
 إلى شجرة من أشجار الشارع أمام المدرسة حتى ينتهي الشيخ من محاضراته
 فيمتطيه ويقفل راجعا . بل إن عبد المطلب كان يركب العيس في ريف
 مصر ، العيس التي لم ينسها ، أو كاد لا ينساها ، في قصيدة من قصائده .
 ولكن الشيخ لم يغفل عن مطايا المدنية الحديثة ، ولم يغض من شأنها ، ولم
 يفضل عليها الأبل ، بل أشاد بذكرها في شعرة ، وركب منها في حياته . فلقد

استبدل الشيخ بحماره سيارة ، سيارته الأولى التي أراد أن تكون قطرة
انتقالية من ذوات الحوافر الأربع ، إلى ذوات العجلات الأربع . وبذلك
كان وفيما مرة أخرى لمذهبه في الجمع بين القديم والجديد ، فلم يظفر
بالانتقال من ظهر حماره إلى مقعد ويثر في سيارة نفخة ، بل اتخذ تلك
السيارة «الانتقالية» حقة جرب فيها الجديد حتى أنس به واقتنع بصلاحيته
ثم هجرها إلى سيارة نفخة لازمها حتى يومه الأخير . ولقد ظهر ذلك كله
في شعره . فوصف السيارة والقطار البخارى ، والطيارة والكهرباء الخ .
استمع إليه حين يودع صديقه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه في سنة
١٩٠٥ ، وهو زمن لم تكن السيارات فيه قد أزعجتنا أبواقها حتى تفرض
نفسها على خيالنا ، قال في صفحة ٢٩٥ :

ولم في بطون اليد نهج إلى العلا وفوق متون الناجيات أمانى !
وما نغم الحادين إلا مثالك يغنى بها واعى العلا ومثانى
على أنها عندى زواجر لوعة تحرض أشجاني على الثوران
ثم استمع إليه يصف عيش الأغنياء (ص ٩١)

تلاّلا الكهرباء فيه تلاّلا الكئُس الجوارى
كانه ، والظلام ساج من حوله ، آية النهار
ومركب كالنسيم يجرى على الثرى آمن العثار
لا خيل تعدو به ولكن حيث يادولة البخار

أو فاستمع إليه يصف جيش الدولة العثمانية وهو يهنئ السلطان عبد
الحميد بعيد الدستور (ص ٩٤) :

حتى إذا طمع العدو ، وراه سكيات ليثهما عن التزآر
سبق البخار إليهما عن أمره سبق الشهاب لما رج من نار
يطوى على عجل فيافي قبلة بعدت على طيف الخيال السارى

«باء» البخار لقد علمنا أصبحت في شرعة التاريخ «فاء» فخار
ولعل أجمل وصف له في البخار قوله في وداع صديقه الشيخ عبد
القادر المغربي الظرابلسي، عام إعلان الدستور التركي (ص ١٣٩) :
وقلبا تولاه الآسى ، كلما هفا بمسمعه ذكر البخار تفرعا
فياقاتل الله البخار ، كم اعتدى على شمل قوم جامع فقطعا !
إذا ما شكنا قبل من العيش موجه شكوت قطار البرّ أدهم أسفعا
فمن سائر ينقض في اليد زائرا فتحسبه طيفا من الجن مُفزعاً
تراه ، إذا أرسلته في مفازة إلى قطعها ، من خاطر النفس أسرعا
وينقض في البيداء يعلو عجاذه كما عصفت ريح من الغرب زعزعا
كان نجوم الليل حال ادلاجه من الوحش سرب مقبل مدبر معا
وكما وصف عبد المطلب السيارة والقاطرة البخارية ، وصف كذلك
السفينة البخارية ، والطائرة والكهرباء . ففي القصيدة السابقة ، وعقب
الآيات التي رويناها يقول واصفا السفينة : —

وسابحة يغنو لها البحر هية ويمسى سحب الجو منها مروعا
كان حفافها قوادم أربد بحيزومه نحو المجرة أتلعا
تطيح جبال الموج تحت لبانها كما طاح رضوى أو ثبير تصدعا
وتلهو بمخضر العباب كما لهت سوام بمخضل من الروض أمرعا
ترى في رغاء البحر في جنباتها قى شيت منه الحوادث قنزعا
تميس بالهوج الرياح دعابة كما ماس غصن بالنسيم ترعرا
ويقول في وصف الطائرة ، في استقباله الطائرين التركيين (ص ٩٥)

وقفت لك الدنيا فسيرى مسرى الضياء من الأثير
يا أخت سابحة النجو م ، وبنت سانحة الضمير

أفانت وافدة البخا ر على الأجادل والنسور ؟
 ثارت لتأخذ باسمه عهدا على ملك الطيور
 ملك البخار على السما ك بضولة الملك القدير

فالنجم في فرق يجو ل بجفن مرتاع حسير
 والسحب من حذر البخا ر وبأسه حيرى المسير

أهلا بمعية . الهلا ل ، على الكواكب والبدور
 ومن أجل ما قاله صاحب الديوان في وصف الطائرة مطلعاه
 في العلوتين العلوية الأولى (ص ٢٦٨) والعلوية الكاملة (ص ٢٣٠)
 قال في الأولى :

أصغر الأرض وما فيها مقاما فاعتلى يضرب في السحب الخياما
 حسد الطير على الجو فسرا عان ما خلق في الجو وحاما
 يزجر الرياح فتجرى تحته أينما ولى بها تلوى الزماما
 ساجحا فوق ابنة النار على مسرح النجم جنوبا وشاما
 فإذا شاء أسفت في الثرى وإذا شاء بها شق الغماما
 أخوذيات إذا ما هزمت تملأ الأفاق رغاء واهزاما
 سفرى في الجو إلا أنها في السرى تطويه كالطيف لماما
 ليت شعرى أين يبغي بعد ما غلب النسر عليها والحماما
 يا خليلي احملاني فوقها علي ألقي على السحب . الإماما

وقد حوم في مطلع علويته الكاملة حول هذه المعاني نفسها ، وبالألفاظ
 عنها إذ يقول

أرى ابن الأرض أصغرها مقاما فهل جعل النجوم بها مراما ؟ الخ

أما بعد فهذا منحه عبد المطلب في شعره ، لو لم نزد عليه كلمة لكان تلخيصاً دقيقاً لمذهبه في الشعر ، وصورة واضحة لما أودعه ديوانه . غير أننا نرى لزماً علينا ، وإنصافاً للشيخ ، أن نلم الإمامو جزأ ببعض الأبواب التي طرقها الشاعر ، لنبدى فيها رأينا .

الأدب المستعار :

يصطدم قارى هذا الديوان في أولى خطواته بنوع من الشعر أسميه « الأدب المستعار » وهو أن يقول الشاعر على لسان غيره شعراً في شأن من الشؤون التي لا يحقق لها قلبه ، ولا تستقر في يقينه . فثاني قصيدة برويها لنا الديوان ، في الصفحة الثالثة ، يقول الشاعر في مقدمتها : « وفي سنة ١٩١٤ كان بين المرحوم اسماعيل أباطه باشا وبين ابن أخيه محمد بك سليمان أباطه جفاء ، فطلب إلى الباشا أن أعاتبه على لسانه فقلت . » وفي الصفحة الخامسة نرى قصيدة في استقبال عدلى يكن باشا عند عودته من انجلترا بعد انقطاع مفاوضاته سنة ١٩٢١ ولم يذكر لنا الشاعر أن هذه القصيدة من « الأدب المستعار » ولكننا نعلم أنه أريد عليها فخضع لداعي المجاملة أكثر مما خضع لواجب عقيدته . وفي ص ٦٢ يقول صاحب الديوان : « عتاب لبعض الرؤساء على لسان بعض الأصدقاء سنة ١٩٠١ » وفي ص ٨٦ يقول : على لسان حضرة علي الكيلاني بك ناظر مدرسة سوهاج الأميرية ، تهنته الأستاذ الكبير الشيخ أبي الوفاء شرقاوى بحجه و قدومه سنة ١٩٠٠ » ، وفي ص ٣١٤ يقول قصيدة « على لسان بعضهم ، استعطاف لسانا باشا مدير البريد » وفي ص ٣١٥ يقول : كتبت تهنته يمولودة اسمها عليه على لسان بعض الأصدقاء سنة ١٩٠١ » .

وأنا أريد أن أقف لدى هذا الضرب من الشعر وقفة قصيرة أعلل

فيها نشأة هذا الأدب ، وأذكر فيها قيمته الفنية . إن هذا الشعر المستعار — أو على الأصح المعار — يدل ، إذ يظهر في أمة من الأمم على أمرين : أحدهما الأمية الشعرية ، أو فقدان الشعر من حيث هو قوة من قوى التعبير عن النفس ، وثانيهما رفعة الشعر وعلو شأنه في تلك الجماعة . فانتشار الأمية الشعرية في المجتمع يدعو إلى استعارة الألسنة الناطقة ، كما يدعو انتشار الأمية الخطية إلى استعارة الأقلام الكاتبة ، على مثال ما كنا نجده — وما لانزال نجده — في الجواسق الصغيرة المقامة على الأطورة (الأرصفة) خارج المحاكم ، وفي الصيارف ، وطلبة العلم المخففين ، في قرى الريف . وشعور الناس بحاجتهم إلى التعبير الشعري عن أفكارهم — وأحياناً عن أفكار تخلق لهم — دليل على أن للشعر منزلة رفيعة بينهم ، ولولا ذلك ما كفوا أنفسهم ذلة الاستعارة ، وسجلوا على أنفسهم العى والحصر . هذا هو في رأيي ، سبب حياة هذا « الأدب المستعار » الذي لا يعيش - عادة - إلا في مجتمع لم تطغ عليه المادية طغياناً ينسيه جمال التعبير الروحي في نغمات الشعر ، ولم يرتق مع ذلك في الحياة الأدبية رقياً يقدر أفرادها على ذلك التعبير كلاً عن نفسه ، ويغنيهم عن استعارة بعضهم السنة بعض . أما القيمة الفنية لهذا الشعر المستعار ، فحتاج إلى قدر من التؤدة . فأنا أعلم أن النقاد الآن يسمون هذا الشعر زائفاً كاذباً . وما في هذا أريد أن أخالفهم ، أو بعبارة أدق : أنا أكاد لا أخالفهم في أنه شعر كاذب زائف . ولكن الذي أريد أن أكشف عنه هنا هو أن قدر من الصدق قد يظهر في ثانيا هذا الكذب ، وشيئاً من المعدن الكريم قد يلبع في وسط ذلك الزيف . فكثيراً ما يكون لدى الشاعر ما يسميه العلامة فرويد ، الرغبات المحتبسة ، في العقل الباطن فينهز فرصة القول في غرض من الأغراض المستعارة ليغبر عن تلك الرغبات فيفكها من عقالها ، ويطلقها

من محبها . وعند ذلك نقول إن الشاعر استطاع أن يتقمص الحالة الجديدة ، كما يحدث للممثل أن ينسى شخصيته في الدور الذي يمثله . ففي أولى قصائد « الشعر المستعار » في ديوان عبد المطلب نسمعه يقول ، لآعن لسان من رغب إليه ، ولكن بلسانه هو ، ومن يقينه هو :

إن الكريم إذا ما احتاجه غضب لم يلوه عن طريق الحكمة الغضب
الله في الود والقربى ، فإن لها حقاً على الناس جاء تنابه الكتب
وفي ثانی القصیدتين ظهرت « الرغبات المحتبسة » بصورة أقوى ، فقد كان هوى عبد المطلب في ناحية ، والمرحوم عدلی یکن في ناحية أخرى ، وكان الخلاف بين عدلی وسعد إذ ذاك بالغاً أشده ، ولكننا مع ذلك نرى عبد المطلب قد غلبه عقله الباطن فقال :

قالوا : السلام ، فقام قائدنا يزجي إلى حلباته النجبا
ولرب سائحة إذا عرضت صدق الكدوب وجداً من لعبا
فدعوه إذ برموا بصاحبه ظنوه يرضى ما أخوه أوى
ظنوا وزير النيل يخبله لمع السياسة بين من خلبا
أما ثالثة القصائد « المستعارة » فتألفه الأثافي ، فهنا لم يكن للشاعر « رغبة محتبسة » تطلب الحرية ، ولذلك جاءت القصيدة غثة بالية . أى جمال ، في المعنى ، أو الخيال ، فيما يقول عبد المطالب ، في ذلك العتاب الزائف :

مولای غنى صدا وهو الخبيب المفدى
ما كنت أحسب دهرنا لنا يغير عهدا
ولا يحول حالا ولا يدنس ودا

مضت ليال أرتنا عيش المودة رغدا
بالصفو كانت رياضنا تفوح عطراً ونداء

حال الزمان فعادت لنا كواخ لدا
ولست أجد تعليقا على هذا النظم ، أبلغ مما قال عبد المطلب نفسه
منهما (ص ٢٢٥)

إذا وازنوا يتنا على النظم صفقوا وما الشعر في مستفعل وفعل
أما القصيدتان الباقيتان من شعر عبد المطلب «المستعار» فاني أرى
من حرمة ذكره ألا أقتبس منهما شيئا .

الشعر الصادق

ولئن كان عبد المطلب قد تورط ، في أحيان قليلة ، (رأينا أنها لم
تتجاوز خمس قصائد) فأعار شعره ، لقد كان عبد المطلب الشاعر الصادق
والوفى الأمين . يبدو ذلك في كل شعره ، ويبدو بصفة خاصة في شعره
لإخوانه وفي وطنه . وخير نموذج أقدمه لشعره الصادق في الأخوة
ماقاله في الشوق لصديقه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه ، وكانت بينهما
آصرة الصداقة طاهرة قوية ، وقد عبر عنها كل منهما بشعر جيد مليح .
ومن حضر حفل التأيين الذي أقيم لعبد المطلب يذكر أنه رأى شيخاً وقوراً
يرأس الحفل ، قد حنت السنون ظهره ، ولكنها لم تحن قلبه ، وهزت
الشيخوخة يديه ، ولكنها لم تزعزع إخلاصه . ذلك هو الشيخ قراعه
الذي كتب إليه عبد المطلب ، وقد نقل الشيخ من سواهج إلى أسران
(ص ١٢١) .

«أمر على الديار ديار ليلي ، قسبى أدمعى حمراً غزاراً
وأذكر جيرة ظعنوا فاحنوا ، أقبل ذا الجدار وذا الجدارا»
«وما حب الديار شغفن قلبي ، فيظني لثها ذاك الأوارا
ولا لثم الطلول أسال دمعى ، ولكن حب من سكن الديارا»

فأجابه الشيخ قراءة :

أقضى الوقت أجمعه اذكراً
وأطقي بالمدامع نار قلبي
لمن عنهم ترحلت اضطراباً
فتذكي أدمعي في القلب ناراً

لهمك أن عهدك عهد صدق
وأنتك إن تمر بدار ليلي
وأنت خير من حفظ الذمارا
أحاداً فقد مررت بها مراراً
أمر بخاطري ، ومنأى أنى
وما حب الديار شغف قلبي ،
وما همى الركون إلى الأمانى
ولكن حب من سكن الديار
ويستوقفني في قطعة الشيخ قراءة بيته الذي يقول :

وأطقي بالمدامع نار قلبي
فتذكي أدمعي في القلب ناراً

فقد عبر الشيخ عن أحدث نظرية في علم النفس عن نشأة الوجدان ، تلك هي نظرية « جنس - لنج » . فرأى الجمهور من علماء النفس على أن الوجدان ينشأ نفسياً ثم يبدو على أعضاء الجسم من بكاء ، أو ضحك ، أو احتقان للدم ، أو انتفاخ في الأوداج الخ ، ورأى كل من جنس ولنج ، على عكس ذلك ، هو أن الوجدان ينشأ في أعضاء الجسم ثم يتبعه الجیشان النفسى . وتعرف النظرية الأولى باسم « النظرية النفسية » ، والثانية باسم « النظرية العضوية » . وليس هنا موضع الإفاضة في أدلة كل من النظريتين ولكننى أرى الشيخ قد أضاف دليلاً إلى أدلة « النظرية العضوية » إذ يقول :

وأطقي بالمدامع نار قلبي
فتذكي أدمعي في القلب ناراً

عبد المطلب الشاعر المصري

لقد عاش عبد المطلب في جزيرة العرب بلسانه دائماً، وبخياله في كثير من الأحيان، ولكنه عاش بقلبه في مصر لم يرحها في يوم من الأيام. أليس بعض ما قال فيها قصيدته التالية (ص ٣٣) التي مطلعها:

مصر أمي، فداء أمي حياتي . سلمت أمنا من العاديات !

يارياح الحياة في مصر هني روحينا بطيب ريا الحياة .

ياسماء الحياة في مصر جودي أنفسا فوق نيلها صاديات .

ما لام الأمصار حملها الدهر صنوف الآلام والموجعات ؟

وقد أنشد هذه القصيدة في حفلة لتربية الطفل حضرها فيمن حضر خمسمائة وألف سيدة، وأذكر أنني سمعته ليلئذ فما سمعت أرق منه لفظاً ولا أجمل أسلوباً، ولا أخذ بمجامع القلوب. ولقد فاجأنا يومئذ عذوبة القصيدة وسهولتها ورقها، فكدنا نعتقد أن عبد المطلب، الشاعر البدوي، لا يستطيع أن يقول مثلها. ولكن كذلك كان عبد المطلب: عربي بدوي إذا شاء، وشاعر حضري إذا أراد. وما أصدقه إذ يقول في الاحتفال بالعيد «الخمسيني» لدار العلوم (ص ٢٢٠)

دان القريض لنا، فأما روضه فجني، وأما صعبه فذلول

ولنا إذا شئنا جزالة جرول وإذا نرق فتوبةً وجميل

وما أكثر قصائده، وما أطولها، وما أبلغها، تلك التي حيا فيها ملك

البلاد، ودار النيابة، وزعماء الوطن، وتغنى فيها بمجد مصر القديم عامة،

وبعضمة «توت عنخ آمون» خاصة! استمع إليه حين يحيي ملك النيل المعظم (ص ١٠):

وإذا الوجوه المسفرات تدفقت بشراً على القسمات، فهو إهاب

وإذا العيون من المهابة خشع وإذا القلوب من السور طراب
وإذا الملك بنا يحيي قومه فواصل التهليل والترحاب
ودعا خيله المجلسين ، وسلدوا عقد التحية ، والدعاة جواث
أو فاستمع إليه يخاطب «توب عنح أمون» (ص ٨) :
غاليت في كتمان رمسك بجاهداً كيلا تحيط بعلمه الأعقاب
باطالما كذبت قوماً حاولوا أن يعلموك متقين فخابوا !
حتى رأيت بلاد ملكك أصبحت بالجهل ترمى ، والهوان تعاب
أدنت رائد هم ليشهد أننا للملك قبل وجودهم أرباب
وأذنت للمتغربين ، لعلمنا عرفوا لقومك حقهم فأتابوا
أتراف حين رآك قام بما قضت قدما به العادات والآداب ؟
ورأى جلال الموت زادك هبة فجتا ، ومثلك في الضريح بهاب
أم راح في صلف عليك ، فلم يرم حتى هوى أجل به وكتاب ؟
وما أجل ما يقول بعد أبيات :

فرعون أورث «أحمد» استقلاله فالملك ملك ، والجناب جناب
ما إن يضير العرش أن تتغير الأسماء من أهليه والألقاب
ولعل في قصيدته القافية وأبياتها ثمان ومائتان ما يقنعنا بتعلق الشاعر
بوطنه وفيها يقول يعير الحلفاء هزيمتهم في إحدى المواقع :

كأني بهم يوم البحيرات كبهم بهاجيش «هندنرج» من كل مزلق
جنود تروغ الليل أنزلها الردى ضيوفا على الحيتان في شر فندق

.....
هل الحرب إلا ما علمتم وذقتمو وما هو عنها بالحديث المزوق

المعالي البكر

إن قيمة الشاعر تعتمد على مقدار ما استحدث من أفكار ، وما

اشكر من معان ، إلى جانب ثروته الزخاية فهو في هذا كالعالم المؤلف
 إن لم يزد على آراء من سبقوه كان محسوباً مع العلماء وليس منهم . وبعد المطالب
 معان وأخيلة بعضها جديد وبعضها نصف جديد ، وكلها حسن جميل .
 ولقد رويناهما فيها فيما رويناهما ، ولكنني أضرب قطعة أو قطعتين ألا تذكر
 على سبيل التخصيص . فقد قال في رثاء المرحوم الشيخ علي يوسف ، وقد
 غاض النيل عامئذ ، فاتخذ من ذلك مادة لحسن التعليل إذ يقول (ص ٦٩) :

حيات حياة الماجدين ، فإن تمت فإنك في طي الضمائر مخلد .
 إذا جزع «جرجا» فما كل من بكت «علي» ولا كل امرئ ، فاد سيد .
 ألم تر أن النيل قاسم أهلها حداداً ، فواديهما من التبت أجرد ؟
 قولوا حداد النيل فيها لما ضفا على أرضها ثوب من المحل أسود .
 وله في رثاء المرحوم عاطف بركات باشا أبيات عيون ، فمن ذلك قوله :
 يقولون : أودى ربها غير مخفف بنين على آثارها وبنات
 رويدكم ، إن الحجا يلد الحجا ولا عقم إلا في نهى وحصة
 وقد ينفد المسك الذكي معقبا سواطع من أرواحه عطر
 ومن مات من أهل العلا خلع العلا على ملا من قومه وسراة
 ومن يقن في نشر المعارف يحى في أساتذة رباهم وهداة
 ومنذ الذي ربي كبناء عاطف أئمة هدى ، أو عدول قضاة ؟

ومن أقوى مطالعه قوله في رثاء المرحوم فتحى زغلول باشا (٣٠٦)
 أرى الشعر يدمى بالدموع المأقيا كفى حزناً أن تسمع الشعر باكيا !
 دعونا القوافي أن يمكن تهانيا فجئن على رغم الأمانى مرانيا .
 ومن العجيب أن له قصيدة في رثاء المرحوم سعد زغلول باشا تبلغ
 ستة ومائة بيت ، ولكن لم يرقى منها إلا بيت واحد — أو على الأصح
 شطر من بيت هو قوله (ص ٥٩) :

أهابوا بالزمان فروعوه وأجفلت الحوادث حين صاحوا .